مصاديق الرصانة العلمية في التراث العربي اللغوي والادبي

 مقاربة في المصطلح والمفهوم

1. د. سليمة جبار غانم

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

اذا كانت الرصانة العلمية تُعنى بدقة المادة العلمية ، وإحكامها ، واتّزانها ، و ما يندرج تحتها من أسس نظرية لكل علم من العلوم ، أو جوانب تطبيقية ، فإن هذا المفهوم له جذور قارّة في تراثنا العربي ، ولمختلف العلو : الصرفة ، والإنسانية ، ويقف هذا البحث عند عدد من المدونات اللغوية والأدبية في تراثنا العربي ، وهذه المدونات حافلة المضامين العلمية التي يمكن إبرازها ، وتحليل معطياتها ، وتحديد مساراتها على وفق المعنيين اللغوي ، والاصطلاحي ل( الرصانة ) ، فقد ورد الجذر اللغوي ( رص ن) في المعجمات العربية كالعين للخليل بن احمد الفراهيدي ( ت ١٧٥ ه‍) ، ومعجم الصحاح الجوهري (ت ٣٩٦ ه‍) وغيرهما من المعجمات التي أفاد منها البحث في الكشف عن المدلول اللغوي لهذا الأصل. وقد استقى البحث مادته التطبيقية من عدد من المدونات العربية : اللغوية والأدبية ، كالمعجمات ، وكتب الفروق اللغوية ، والتفاسير ، و نهج البلاغة ، فضلا عن طائفة من الدواوين الشعرية ، ويؤكد البحث التلازم الوثيق بين أركان الرصانة العلمية ـ أن صحّ التعبير ـ فالرصانة وُصِفت بأنها علمية ، ونسبتها إلى العلم تقتضي التزاما بالحلقات الأخرى ، فالعلم ( رسالة ) بوصفه مفهوماً معنويا لا يُدرَك بالحواس لا يقوم بدون ( العالِم ) وهو مفهوم مادي بتجسد بالعالم أو المُعلم ، وما إلى ذلك من مراتب العلم والتعليم واركانهما ، ويمكن وصف هذه المراتب ب ( المُرسِل ) الذي يحمل رسالة علمية ـ بغض النظر عن طبيعة العلم : إنسانيا ، أو صِرفا ـ وهذه الرسالة لابد لها من مُستلِم ( المرسَل إليه ، أو المتعلم) ... وهذا المثلث العلمي : ( العلم ، والمعلم ، والمتعلم ) لكل ركن منه شروط ، و حدود ... يتكون البحث من ثلاثة أركان هي : العلم ، والعالم ، والمتعلم ) أسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضى ، ولما يخدم لغتنا العربية لغة كتاب الله العظيم القرآن الكريم ، ولما يرتقي ببلدنا العزيز ....والله من وراء القصد...

المقدمة :

 إنّ الأمم لا تنهض إلا بالعلم ، فهو أساس كل بناء وتطور ، و تُقاس درجة التطور بحسب المستوى العلمي المعرفي ، ومؤهلاته ، وتقنياته ، و ما ينعكس على الأفراد من حيث توظيف ذلك ، والالتزام بالقيم العلمية ، و تحويلها إلى الواقع ، وذلك لأن العلم لم يكن في كُتُب تمتلئ بها رفوف المكتبات ، وانما هو ممارسة علمية واقعية و تفاعُل ، لا تتجلى حقيقة العلم إلا في التطبيق العملي.

 اما الرصانة العلمية فوصفها ب( العلمية ) دليل على (( شدة الثبات ونحوه )) (١) يقال : (( رَصَنَهُ : أكمله ،... وارصنَهُ أحكمه ، وقد رَصُنَ ككَىرُم و وكأمير : المُحكَم الثابت ...))(٢) ، فإذا كان العلم مجموعة من المعلومات في إطارها النظري أو العملي ، فإن الرصانة تعني إحكام هذا العلم ، وثباته . وفي هذا البحث سنقف عند الرصانة العلمية على وفق متعلقاتها، وأركانها ، وهذه الأركان تمثل مثلثا لا يستقيم الا بتظافر أركانه ، فلا يمكن الاستغناء عن أي ركن منها .فإذا كانت الرصانة العلمية في مفهومها اللغوي تعني الإحكام والكمال ، والثبات والاتزان ، فإن ( العلم ) الي يمثل الرسالة ، لا يبلغ مستوى الإحكام بدون ( العالِم) الي يحمل هذا العلم ، وينقله إلى الأفق الأوسع إلى الناس ( المتعلم أو المرسَل إليه) ، ومتلقي العلم هو الحلقة التي تجعله واقعا ، أن ما دأب عليه العلماء العرب من اهتمام بالعلم ، وأركانه ، و ما وضعوه من شروط و مقاييس يُعدّ مصداقا من مصاديق الرصانة العلمية ـ بمفهومها الحديث ـ وغابتهم تحقيقها ، فقد نجد مواضع كثيرة للحث على طلب العلم ، والالتزام بشروطه ، و نجد ما يؤكد فضل العلم واهميته، وصفاته ، وهذا التتبع لمصاديق الرصانة العلمية في تراثنا العربي اللغوي والادبي أفرز تنوعا ، و إدراكا له أدلة وبراهين واضحة من خلال الشواهد ، فجاء البحث في ثلاثة مباحث ، وكما سيتبين ـ أن شاء الله تعالى ـ .

المبحث الأول:ـ ( العِلٔم )

 إن مفهوم العِلم يتضح من دلالته اللغوية المعجمية ، فهو نقيض الجهل ، وهو أيضا إدراك الشيء بحقيقته ، و عَلِمَ بالشيء يعلَمُه اي : عرفه (١) ، أما المعنى الاصطلاحي فلا يختلف عن دلالته اللغوية ، واذا ما تتبعنا تراثنا اللغوي والادبي سنجد العلم مفهوما ومصطلحا متحققا ، قولا ، وتطبيقا ، وشروطا ، و أهمية ، ومكانة ،اما مصاديق العلم في تراثنا العربي فتتجلى في جوانب متعددة ، سنعرض بعضا منها ، لأن الإحاطة بها جميعا تمر غير متيسر ، فضلا عن ضرورة الالتزام بمحددات البحث ، وشروطه.

* أهمية العلم ومكانته :ـ

 تطالعنا مصاديق كثيرة في أهمية العلم ومكانته ، فقد اهتم الدين الإسلامي الحنيف بالعلم ، والعلماء ، و المصاديق على ذلك كثيرة ، فلا خلاف بأن اول ما نزل الوحي على نبينا محمد ( صلى الله عليه وآله وسلم) سورة العلق ، إذ بدأ بكلمة ( أقرأ) ، و ما هذه الكلمة الا دعوة للعلم ، قال تعالى : (( أقرأ باسم ربك الذي خلق)) ( ٢) ، ومصداق اخر القسم بالأدلة التي بدون بها العلم وهو ( القلم ) ، قال تعالى : (( ن والقلم وما يسطرون)) (٣) ، وهناك آيات قرآنية كريمة كثيرة في هذا المجال لا تخفى على مسلم ، وهناك احاديث نبوية شريفة ، تؤكد الاهتمام بالعلم ، منها قوله ( صلى الله عليه وآله وسلم) في الحديث الصحيح : (( مَن سلك طريقا يلتمس به علما ؛ سهّل الله به طريقا الى الجنة )) (٤) فهذا الحديث النبوي الشريف يذكر فضيلة للعلم ، إذ نجد ربطا بين طريق العلم ، وطريق الجنة ، وكما يتضح أن طريق العلم يؤدي الى الجنة ، فالعلم وسيلة يؤخذ بها سواء أكانت مادية وذلك بالتوجه والسير والقصد إلى حيث مجالس العلم ، أو معنوية وتكون بالبحث ، والقراءة ، والتأمل ، والمتابعة ،.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. ينظر : العين ٢/ ١٥٧ ( علم ) ، والصحاح ٣/ ٢٦٠ ( علم ) ، والقاموس المحيط ٢٠٥١ ( علم )
2. العلق١
3. ن ١
4. الجامع الصغير ١/ ٢٢٣

 و نظرا لأهمية العلم فقد جعله الرسول الكريم ( صلى الله عليه وآله وسلم) فريضة في حديثه الشريف: (( طَلَبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم )) (١) فأهمية العلم بلغت أنه فريضة ، كما هي الفرائض الأخرى كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك ، والجدير بالذكر أن أقوال العلماء تعددت في تحديد ماهية العلم التي أرادها الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم) هل المراد العلم الخاص بمعرفة الله واسمائه وصفاته وانبيائه وسُننه ، و فروضه ، ام العلم الذي لا يلزم لكمال الإيمان كالتجارة واحكامها، والاقتصاد ، والعلوم الأخرى.

 والإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) له اقوال و وصايا مثيرة في أهمية العلم وفضيلته تناقلتها مدونات المسلمين القرآنية وغير القرآنية ، من ذلك ما نقله نظام الدين النيسابوري ( ت٧٢٨ ه‍ ) في تفسيره : (( و قال علي بن ابي طالب ( رضي الله عنه) : العلم افضل من المال لسبعة أوجه: العلم ميراث الانبياء والمال ميراث الفراعنة ، العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص ، المال يحتاج إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه ، اذا مات الرجل خلف ماله والعلم يدخل معه قبره ، المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن ، جميع الناس محتاجون إلى العالم في أمر دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال ، العلم يقوي الرجل عند المرور على الصراط والمال يمنعه منه ....)) (٢) , وهذا القول المفصل الذي نجد فيه الموازنة أو المقابلة بين العلم والمال يعكس رؤية الامام ( عليه السلام) لهذين المفهومين ، ويبدو جليا ان العلم الذي قصده أمير المؤمنين هو العلم بالدين الإسلامي ، ودلائل ذلك كثيره كالمرور على الصراط ، وتحصيل المؤمن للعلم ، وكونه ميراث َالانبياء ، وحاجة المسلمين للعالِم المتفقه في الدين لإرشادهم إلى الصواب. و من أقواله أيضا ( عليه السلام) : (( كُلّ وِعاء يضيق بما جعل فيه إلا وِعاء العلم ، فإنه يتّسعُ )) )٣) وقد شرحه الشيخ محمد عبده قائلا: (( وعاء العلم: هو العقل ، وهو يتسع بكثرة العلم )) (٤) . ففي قوله (عليه السلام) إشارة إلى ميزة يتميز بها العلم كونه واسعا ، وهنا كنّى الإمام عن العقل بالعلم ، فوعاء العلم هو العقل .

ــــــــــــــــــــــــ

1. رواه ابو سعيد الخدري ، الجامع الصغير ٥٢٤٦
2. غرائب القرآن ١/ ٢٢٧
3. نهج البلاغة ٤٦٣
4. المصدر نفسه هامش (٦)

 إن نظرة الاكبار والتكريم إلى العلم تعد مصداقا لأثره و أهميته في الحياة كلها ، وقد وردت اقوال لأمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصدد ، كقوله : (( إذا أرذَلَ الله ُ عبدا حظر عليه العلم )) (١) وشرحه الشيخ محمد عبده: (( ارذلهُ الله ُ جعله رذيلا ، وحظرهُ : اي منعه)) فالعلم يُصفي على صاحبه وقارا ، و هيبة ، على العكس لمن كان جاهلاً ، فالجهل ءلّ وهوان لصاحبه ، وهذه المقابلة بين العلم والجهل ، إنما هي بيان لأهمية العلم ، ولاسيما الجانب المعنوي ، وقد قدم أمير المؤمنين لما عرف عنه من بلاغة وبيان صورة ناطقة ، وبعبارة دقيقة موجزة.

 و في تراثنا الأدبي ولاسيما الشعري ما يستحق التأمل والدراسة في ارتقائه بالعلم ، كقول الشافعي : (٢)

 تعلّمٔ فليس المرءُ يولدُ عالِما و ليس اخو علمٍ كمن هو جاهِلُ

 و أن كبيرَ القومِ لا عِلمَ عندهُ. صغيرٌ إذا التفّت عليه الجحافِلُ

نلاحظ العلاقة الضدية بين الألفاظ ، والمجيء باللفظ ونقيضه أو ضده بالمعنى يُسهم في التأثير في المتلقي ، ويعمل على التوكيد ، وإظهار الفكرة وترسيخها ، كالعلم والجهل ، والصغير والكبير ... ويقول الشاعر صادق القاموسي:ـ(٣)

قُمٔ كَرّمِ العلمَ يرجعٔ عنك مُندحِرا جَهٔلٌ أقامَ عزيزا بيننا حِقَبا

* العلم : شروطه ، ونشره:ـ

 تتحقق الرصانة العلمية عندما يكون مركزها ، وأساسها وهو العلم قد أُحكِمَ ، وأصبحت له حدود ، و مُحددات ، وشروط ،فالعلمُ ليس مجرد نظريات ، وقواعد ، ومعلومات ، ولعلّ قول أمير المؤمنين ( عليه السلام) أو موعظته وحكمته يبين جانبا من شروط العلم ، إذ يقول : (( اوضَعُ العلمِ ما وُقِفَ على اللسان ، و ارفَعُهُ ما ظهر في الجوارح والاركان)) ( ٤) هذه الموعظة التي يسديها أمير المؤمنين تكشف عن حدود العلم ، و أحد شروطه ، إذ ذكر ( عليه السلام) نوعين للعلم، الاول: علم وَضيع ، لا يتجاوز اللسان بمعنى أنه مظهر فارغ من المحتوى التفاعلي ، وهذا النوع يتسم بالانحطاط والوضاعة ، والثاني : علم رفيع ، اي : تتحقق فيه

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. نهج البلاغة ٤٧٨ ، وينظر المصدر نفسه هامش ٦
2. ديوان الشافعي ١٤٦
3. ديوان صادق القاموسي ١٣٥
4. نهج البلاغة ٤٤٥

 الرفعة والسمو ، وذلك عندما يكون عمليا ، وتطبيقيا على الجانبين المادي والمعنوي ، يتفاعل مع الواقع ، تفاعُلا ينسجم و معطياته وتغيراته ، وهذا الشرط لابد منه ، فالعلم لم يكن معلومات تملأ الكتب ، وانما هو انصهار فكري معنوي ومادي ، وتطبيق عملي ، وفي المفهوم ذاته ـ وهو اقتران العلم بالعمل – نجد قولا آخر للإمام علي ( عليه السلام) وهو: (( العلم مقرون بالعمل، فمن عَلِمَ عَمِلَ ، والعِلم يهتِفُ بالعمل ، فإن أجابَهُ وإلّا ارتحلَ عنه )) (١) وللشيخ محمد عبده تعليق يشرح فيه هذا القول بأن : (( العلم يطلب العمل ، ويناديه ، فإن وافق العمل العلم وإلا ذهب العلم ، فحافظُ العلمِ العمل )) (٢) ، وهذه مسألة دقيقة ـ أعني تلازم العمل مع العلم ـ وقد وقف عندها بعض الباحثين المحدثين ، و عدّوها مسألة مهمة اصطلح عليها (( تفعيل العلم ، على الإنسان أن يجمع َ العملَ إلى العلمِ )) (٣) .

 ومن مصاديق الرصانة العلمية أن يُنشر العلم ، و يصل إلى مستحقيه ، وقد روي عن الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم) حديث نبوي شريف وهو : (( زكاة العلم تعليمُهُ مَن لا يعلمُهُ )) ( ٤) . و له حديث آخر عن أبي بكر الهذلي ، عن الحسن ، أن النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم) قال : (( ما تصدّق الرجلُ بصدقةٍ أفضل من علمٍ ينشرُهُ)) (٥) . فنشر العلم يرتقي إلى مرتبة الزكاة ، و افضل الصدقات ، و عدم منعه عن مستحقيه يدل على حرص ديننا الحنيف على الارتقاء بالإنسان ، لأن العلم أحد حقوقه المشروعة.، وليكن فاعلا في مجتمعه .

 و هناك اقوال لأمير المؤمنين ( عليه السلام) في هذا المضمون ، كقوله : (( العلم يزكو على الانفاق)) (٦) . إن نشر العلم فضيلة ما بعدها فضيلة ، و لو لم تكن أهمية العلم لما كان لنشره الأثر الطيب والعظيم ، والتكرمة العالية .

 ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. نهج البلاغة ٤٨٩ ، و نُسب هذا القول للرسول الكريم ( صلى الله عليه وآله وسلم ،) ينظر : بحار الانوار ٢/ ٣٣ ، والصواب أنه لأمير المؤمنين في نهج البلاغة
2. المصدر نفسه هامش ٦
3. حكمة القرآن في سورة لقمان ٣٠٩
4. ميزان الحكمة ٢/ ٢٠٧٤ ( وللإمام الصادق ( عليه السلام) قول بالمضمون نفسه ، بنظر : المصدر نفسه )
5. إعراب القراءات السبع و عللها ١/ ٣٩
6. نهج البلاغة ٤٥٥

نجد هذه المضامين عند الشعراء أيضا ، ومنهم الشافعي في قوله : (١)

 فمن مَنَحَ الجُهَّالَ عِلما أضاعهُ و من مَنَعَ المُستوجبين فقد ظَلَم

 وفي هذه المعادلة بين بذل العلم لمن لا يستحقه وهم الجهّال ، ومنعه عن المستوجبين ، ستكون النتيجة الظلم ، فالجاهل بسبب جهله لا يقدّر العلم فلا يرتقي به ، والمستحق أو المستوجب ـ بحسب قول الشافعي ـ يُدرِكُ قيمة العلم وأهميته ، لذلك فهو يرتقي بالعلم ، وبذلك فإن نشر العلم له مقدمات ، و اصول منطقية ، فالنشر على وفق مبدأ العدالة ، والاستحقاق ، فضلا عن غرض المنفعة العامة أو الخاصة ، و للشاعر القاموسي أيضا ابيات في هذه المنافع ، يقول : (٢)

 تَقَدَّسَ العلمُ ما أوفى منافعه و قُدّستٔ أُمّةٌ بالعِلم ِ تنتفِعُ

 والعِلمُ عِلمان : عِلمٌ دَرَّ تغذيةٓ. و آخرُ ما به رَيٌ ولا شَبَعُ

 ... .......

ماقيمةُ العلمِ إن لم يُزجِ منفعةَ أولى به الجهلُ حيث العذر مُتّسِعُ

و مقصد الشاعر واضح ، فتقديس العلم يرتبط بما يقدمه من منفعة ، والانتفاع بالعلم لا يتحقق إلا بعد نشره ، وهذا أمر مقدس لكل الأمم والافراد على حد سواء. إن نشر العلم ، والعمل على إيصاله إلى طلبته موضع فخر ، وله من الأجر والاثر العميق في النفوس ، و من المناسب هنا أن نذكر بعض الأبيات من قصيدة للشاعر القاموسي يرثي بها أحد العلماء ، قائلا: (٣)

 يا مَربَعَ العلم إن جَفّت سواقيكا. فَذي دُمُوع الملا فاضت لترويكا.

 ....

 كانت نواديك بالتدريس زاهية ََ. أطرافها فغدت قِفرا نواديكا

 ما بالُ روضتك الغنُاء قد خَويَت. عروشها و خبا نبراس ناديكا

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. ديوان الشافعي ١٥٥ ، و ١٩٣
2. ديوان صادق القاموسي ٢٩٧
3. المصدر نفسه ٣٣٩

 إن البحث عن مصاديق نشر العلم ، وما يتصل بها من شروط ، ومحددات في تراثنا يكشف لنا شواهد كثيرة تؤكد حرصا ، وعناية بالعلم من جانب ، وبنشره من جانب آخر ، و من ذلك ما قاله الشافعي الذي عُرف بالزهد والوعظ ، يقول : (١)

 سأكتمُ علمي عن ذوي الجهل طاقتي. ولا انثرُ الدرَّ النفيس على الغَنَم

 إن الإمام الشافعي محمد بن إدريس بن العباس....بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف المُطّلبي القرشي ( ت ٢٠٤ ه‍) الذي عُرف بالتزامه بقواعد القياس ، والحفاظ على النهج العلمي في المسائل الفقهية والإسلامية بشكل عام ، لا يمكن أن نفسر قوله هذا في كتمان علمه وعدم نشره عن ذوي الجهل الا التفسير العلمي المنطقي ،فضلا عن وجود الجهلاء الذين لا يعقلون قولا ، ولا فعلا وقد وُصِف بأنه : (( شخصية سوية فذة ، عبقرية ، تتجلى في حرص على الطلب في دروب العلم والمعرفة ، واجتهاد في العبادة ،و رغبة عن الدنيا ،... وتواضع و وقار، وحضور بديهة. .)) (٢) ، فالعلم لا يُنثر هباء ، ولا يُعطى لمن لا يعرف أهميته ، فمتى تهيأت للعلم الأسباب ، والبيئة الصالحة لنشره: ماديا ، وبشريا ، وعقليا ،كان ذلك موضع استحقاق ، ،، وذلك يقول الشافعي: (٣)

 رأيتُ العلم َصاحبَهُ كريما. ولو ولدتهُ آباءٌ لِئامُ

 و ليس يزالُ يرفَعُهُ الى أن. تعظّمَ أمرَُهُ القومُ الكرام ُ

 فلما كان صاحب العلم أو ذو العلم كريما بغض النظر عن نسبه، وأبيه ، سيكون أمره عظيما بين الناس.؛لان علمه يرفعه , وهذه حقيقة من يستحق أن يُمنحَ العلم .... ومن المنظور نفسه ، يجد الشافعي أن إيداع العلم غير أهله ظلم ، فقال : (٤)

 فمن حَوَى العلمَ ثمّ أودعَهُ بجهله غير َأهله ظلَمَه

 وكما يتضح أن شبه الجملة ( بجهله) اعتراضية لا محل لها من الإعراب ، قصد الشافعي المجيء بها تنبيها لمن يحمل العلم ويريد نشره الا يكون جاهلا بمن يستحقه لأنه سيظلمه اي : يظلم العلم ، فعامله معاملة العاقل ، من الظلم ان نمنع العلم عن مستحقه وهو العاقل ، ومن الظلم للعلم ان لا يكون في مكانه الصحيح . إن نشر العلم يُسبق بمراحل ، يأتي النشر آخرها ، وقد رُوي عن الاصمعي( ت٢١٦ ه‍) أنه قال : (( اول العلم الصمت ، والثاني الاستماع ، والثالث جودة الحفظ ، والرابع العمل ، والخامس إذاعته ونشره )) (٥)

.ــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. ديوان الشافعي ١٥٥
2. الإمام الشافعي فقيها و مجتهداً ٢٦
3. ديوان الشافعي ١٥٣
4. المصدر نفسه ١٦٢
5. مِن هَدي السلف في طلب العلم ٢٣ ( وفي هذا القول روايات باختلاف بعض كلماته)

 وهذه المراحل ، أو المراتب المتصلة ببعضها في قمة الدقة ، والرصانة ، والتسلسل المنطقي : فالصمت اول العلم ، والصمت: السكوت و(( السكوت مختص بالكلام ...)) (١) ثم الاستماع ، من السمع ، وهو(( قوة في الأذن به تُدرَك الأصوات)) (٢) ويرتبط السمع بالقلب ، وهذا حال الجوارح أنها مرتبطة بالقلب ، والاذن حاسة السمع تعد جهة اتصال العلم بالقلب ، وقد استعمل الاصمعي ( الاستماع) لا ( السمع ) لان في الاستماع تكلفاََ ، واجتهادا ، اعتمادا على دلالة الفعل المشتق منه ( استمع ـ افتعل ) (٣) وهذا يناسب العلم لما في تحصيله من مشقة وجهد ، ثم جودة الحفظ ، فالعلم بدون حفِظ يكون ضعيفا ، ولا أهمية له ، ثم العمل له ، فلا يكون مجرد نظريات وقواعد سطحية بدون عمل ، وتفاعُل ، ثم مرحلة النشر ، وفيها تتحقق ( زكاة العلم ) اي : نموه ، وزيادته ، و تطوره ، وانتشاره بين الناس ، ولعلّ الاصمعي أسبق من غيره في تحديد مراتب التعلم أو العلم الخمس ، وقد ذكر ابن القيّم ( ت ٧٥١ ه‍) و غيرُه ست مراحل للعلم : أولها: حُسن السؤال، وثانيها : حسن الانصات ، والاستماع ، وثالثها: حُسن الفَهم ، ورابعها : الحِفظ ، وخامسها : التعليم ، وسادسها وهي الثمرة : العمل به ، و مراعاة حدوده (٤) . و كما هو واضح أن ما اضافه ابن القيم داخلٌ في المراتب الخمس التي ذكرها الاصمعي.

* نَيلُ العلم ، وَ صَونُهُ :ـ

١ـ نيل العلم :ـ

 أن تحصيل العلم وبلوغه، والتمكن من مقوماته ومضامينه ، لم يكن بالأمر اليسير ، فكريق العلم وعرٌ ، وفيه عناء كبير ، وتكلُّف ؛ لذلك كانت له متطلبات لنيله ، وتحصيله ، ومن المصاديق على ذلك في تراثنا العربي اللغوي والادبي ، ما جادت به قريحة الشافعي رحمه الله ، إذ يقول في مقطوعة شعرية من بيتين: (٥)

. أخي أن تنالَ العِلمَ إلّا بستةٍ. سأُنبيك عن تفاصيلها ببيانِ

 ذكاءِ و حِرصٍ واجتهادٍ و بُلغةٍ وصُحبةِ أُستاذٍ و طُولِ زَمانِِ

 وكما نلاحظ الأمور الستة لنيل العلم ، وكما ذكرها الشافعي في هذين البيتين ، فالذكاء به يبلغ المرء ُالعلمَ ، يقال : ذكا يذكو ذكاءََ فهو ذكيّ .. ... :

ــــــــــ

١ـ مفردات الفاظ القران ٤١٦ ( سكت )

٢ـ المصدر نفسه ٤٢٥ ( سمع)

٣ـ ينظر : الدلالة الصرفية في شعر لبيد بن ربيعه العامري ٢٧٦

٤ـ ينظر : مفتاح دار السعادة ١/ ٢٥٣

٥ـ ديوان الشافعي ١٦٣

 سريع الفِطنة ( ١) ، والحرص أيضا والاجتهاد والمثابرة والصبر ، ومصاحبة العلماء ، وهذا لا يكون الا بـ ( طول زمان) وهذا يدل على مدى الصبر في نيل العلم ، ولا ينتهي ذلك عند هذه الأمور في نيل العلم ، بل يذهب الشافعي إلى جوانب أخرى لها أكبر الأثر في تحصيل العلم ، ذكرها في مقطوعة شعرية من أربعة أبيات ، فقال: ( ٢)

 لا يُدرِكُ الحكمةَ مَن عُمرُهُ يَكدحُ في مصلحةِ الأهلِ

 ولا ينالُ العلم إلا فتى. خالٍ من الأفكار والشُغلِ

 لو أن لقمان الحكيمَ الذي. سارت به الرُكبانُ بالفضلِ

 بُلي بفقر ، وعيال لَمَا فَرَّقَ بين التبنِ و البَقَلِ

 تكشف هذه المقطوعة الشعرية عن بعض اسرار نيل العلم ـ كما يصورها الشافعي ، وهي ليست ببعيدة عن الحقيقة ، فتحصيل العلم لا يتأتى مع الانشغال بالأهل ، كون ذلك يجعل التركيز العلمي مشتتا ، وكذلك الابتلاء بالفقر والحاجة ، ومسؤولية العائلة ، محاولا تقريب ذلك عن طريق ربطه بلقمان الحكيم الذي بلغ الحكمة (( والحكمة بركنيها ...( العلم ، والعمل ) لا غنى العاقل الحصيف عنهما)) (٣) ، والشافعي أيضا ابيات في كيفية تحصيل العلم و وجوب التعلم في وقت الشباب ، يقول : ( ٤)

 أصبِرْ على مُرّ الجفا من مُعلِّمٍ. فإنّ رسوبَ العلمِ في نفراتهِ

 و من لم يَذُقْ مُرَّ التعلم ساعة. تَجرّعَ ذُلّ الجهل طُولَ حياته

 و من فاته التعليم ُ وقت شبابه. فَكبّرْ عليه أربعا لوفاته

 وذاتُ الفتى والله بالعلم والتقى. اذا لم يكونا له لا اعتبارَ لذاته

 ومن السبل التي يُنال بها العلم السؤال ،(( وقيل لابن مسعود: بِمَ وجدتَ العلمَ ؟ قال : بلسانِ سؤول ، وقلبِ عَقُول ....)) (٥) .فالسؤال باب العلم ، ومفتاحه .

ــــــــــــــــ

1. ينظر : العين ٤/ ١٢٦ ( ذكا ) ، والقاموس المحيط ١١٨١ ( ذكا) ،
2. ديوان الشافعي ١٤٧
3. حكمة القرآن في سورة لقمان ٣٦
4. ديوان الشافعي ٦٠
5. غرائب القرآن ١/ ٢٢٧

٢ـ صَون العلم :ـ

 لمّا كان العلمُ على درجةٍ من الأهمية والاثر ، وأنه ـ بحسب قول الإمام علي ( عليه السلام) : (( خيرٌ من المال..... والعلم حاكمٌ ، والمالُ محكوم عليه...)) (١) وغير ذلك من مراتب العلم ومراتبه السامية ، فقد صار لزاما صونُه ، وحِفظه ، من مصاديق ذلك في تراثنا الأدبي قول الشافعي:ـ (٢)

 العِلمُ من شَرطِهِ لمن خَدَمَه. أن يجعلَ الناسَ كُلٌَهم خَدَمَهٖ

 و يُوجِبَ صونَه عليه كما يصونُ في الناس عِرضَه و دَمَه

 فَصَون العلم بموازاة صون العِرض والدم ، وفي هذه الصورة التي جعل الشافعي فيها المساواة في القياس بين الطرفين: العلم من جهة ، و العِرض والدم من جهة أخرى لَهُو دليل على مكانة العلم ، و وجوب صونه ، ومن وسائل صون العلم أن يكون القلبُ وعاءََ له ، بمعنى الحفظ المعنوي ، لا المادي عندما يكون في صندوق الكتب ، كما وصفه الشافعي بقوله : ( ٣)

 علمي معي حيثما يَمّمٔتُ ينفعني. قلبي وعاءٌ له لا بطن صندوقي

 أنْ كنتُ في البيت كان العلمُ معي او كنتُ في السوق كان العلمُ في السوقِ

ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. نهج البلاغة ٤٥٥
2. ديوان الشافعي ١٢٦
3. المصدر نفسه ١٣٩

المبحث الثاني:ـ

 العالِم والمُتعلّم وأثرهما في الرصانة العلمية

 إنّ من المسائل التي تعد اساسا تتفق عليه النظريات المختلفة : التربوية ، والتعليمية ، والاجتماعية ، بل ابعد من ذلك و أعمق وهو الجانب الديني والعقائدي ، واعني بذلك الرسالة ، فأيّةُ رسالة ـ مهما كان غرضها ـ لا تتحقق ، ولا تنتشر وتكون واقعا تطبيقيا بدون عنصر فاعل يشكل الأداة التي بها تأخذ الرسالة المدى المرسوم لها ، أو الهدف الذي تسعى لبلوغه وهو ناقلها ، ( ناقل الرسالة ) أو ( العالِم ) ، أو ( المُرسِل أو الرسول) .

 والرسالة تتمثل في جانبها العلمي والتربوي بـ( العِلم ) ، أما المرسِل- فهو العالِم ، في حين يتمثل ( المُرسَل إليه ) بالمُتعلّم ، وهو طالب العلم ... وهذه الحلقات الثلاث تعتمد إحداها على الأخرى لتحقيق الغاية ، وبلوغ الهدف ، بالارتقاء العلمي ، والرصانة العلمية ، و نجد أنها تشكل مثلثا للرصانة العلمية:ـ

1. ـ عِلْم
2. ـ عالِم
3. ـ مُتَعلّم

و خيرُ مَن وصف هذا المفهوم أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ( عليه السلام) في قوله لكُميل بن زياد ، إذ قال ( عليه السلام) : (( يا كُميل : ٱن هذه القلوب أوعيةٌ ، فهيرها أوعاها ، فاحفِظْ عني ما اقولُ لكَ :ـ

الناسُ ثلاثةٌ : فعالِمٌ رَبّانيّ ، و مُتعلّم عل سبيل النجاة ( نجاة ) ، و هَمَجٌ رَعاع، اتباعُ كلّ ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجؤوا إلى رُكن وثيق ، يا كميل : العلْمُ خيرٌ من المال ، العِلم يحرسك ، وانت تحرسُ المالَ ، والمالُ تُنقصهُ النفقة ُ ، والعلم يزكو على الانفاق .... يا كميل : هلَكَ خُزّانُ الأموال وهم احياءٌ ، والعلماء باقون ما بقي الدهرُ ....)) (١) .

ـــــــــــــــــــــــــــــــ

1. نهج البلاغة ٤٥٥

 فقد قدّم الإمام علي ( عليه السلام) صورة دقيقة ضمّت مفاصل رئيسة عن العلم والعالم والمتعلم ، ولم تخلُ الصورة من فاقدي العلم ممن لم يستضيء بنوره فهُم في ظلام ، مع تعالق صورتي من يجمعون الأموال ، و من يفنون عمرهم في طلب العلم ، فتاتي ثمرة ذلك متجسدة بخلود العلماء ، فالعلم لا يغني ، ، والمال لا يُخلّدـ صاحبَهُ ، لأنه ينقص بالاتفاق ، في حين نجد العلم مهما كان انفاقه فهو ينمو ويزداد ، وهذه العلاقة بين المال والعلم ، وكون العلم مرتبة سامية ، منحت العالِم مكانة جعلته قِواما الدين والدنيا : (( وقال ( عليه السلام) : لجابر بن عبد الله الأنصاري : ياجابر: قِوام الدين والدنيا بأربعة : عالِم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكفُ أن يتعلمَ.... فإذا ضيّعَ العالِمُ علمَه ، استنكفَ الجاهل ُ أن يتعلم َ...)) (١) ، و لقداسة رسالة العلم وأهميتها فانّ (( العالِم والمتعلم شريكان في الأجر)) (٢) كما قال أمير المؤمنين ( عليه السلام) فكلاهما يحصلان على الأجر ، وفي ذلك جانب من المساواة بين من يتولى رسالة العلم ، و يُوصلها لمن يستحقها ، وبين المستفيد منها .

 \*اخلاق العلماء:ـ

 يؤكد تراثنا اللغوي والأدبي على صفات العلماء وأخلاقهم ، فليس

 إيصال العلم متهيئا للجميع ، اذا إن حامل الرسالة ومُبلّغها على قدر من

 الأخلاق ، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) : (( تواضعوا

 لمن تعلمونه العلمَ ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم)) (٣) فالتواضع من موجبات التعليم على المستويين : العالم ، والمتعلم ، فالعلم رسالة لها سماتها ، وخصائصها ومن يتولاها ..

ـــــــــ

1. نهج البلاغة ٤٩١
2. غرر الحكم ٣٢٢
3. المصدر نفسه ١٥٦

 و مما يتصل بصفات العلماء وأخلاقهم الانصراف للعلم ، والاجتهاد في تحصيله ، فرصانة ُ العالم لها حدودها ، وثوابتها ، فهو دؤوب في بحثه و الارتقاء بعلمه ، و للإمام الشافعي ابياتٌ شعرية يصور فيها جانبا من ذلك ، منها قوله :(١)

 سَهَري لتنقيحِ العلوم ألَذُّ لي مِن وَصٰلِ غانيةٍ ، و طِيْبِ عِناقِ

 وَصَريرُ أقلامي على صفحاتها أحلى مِنَ الدّوكاءِ ، والعُشّاقِ

 ..........

 و أبيتُ سَهْرانَ الدُّجى ، وتبيتَهُ. نوماََ ، و تبغي بعد ذاك لِحاقي ؟!

 وهذه الابيات تُفصح عما هو عليه كونه عالما ،يمضي وقته تنقيحا لأفكاره ، وصقلا لعلمه وآرائه ، وهذا افضل عنده من ملذات الدنيا

 و مما يتصل بأخلاق العلماء أيضا في تعاملهم مع تلاميذهم الرأفة : (( و قيل : العالم أرأفُ بالتلميذ من الأب والأمّ ؛ لأن الآباء والأمهات يحفظونهم من نار الدنيا وآفاتها ، والعلماءُ يحفظونهم من نار الآخرة ، وشدائدها ...)) (٢) ويبدو جليا أن العلماء في هذا النص المراد بهم علماء الدين ، و مما لا خلاف فيه أن علماء الدين ، وعلماء العلوم الأخرى هم هُداة للناس في دينهم ودنياهم ، بما يخدم الانسان ، ويرتقي به . ولذلك أصبحت للعلماء مكانة سامقة ، فعلمهم زينة الدنيا : (( قيل : الدنيا بستان تزيّنت بخمسة أشياء: علم العلماء ، وعدل الأمراء ، وعبادة العُبّاد ، و أمانة التُّجّار ، و نصيحة المحترفين ....)) (٣) وكما نلاحظ أن علم العلماء جاء ترتيبه الأول من خمسة أمور تتزين بها الدنيا ، وهذا دليل المكانة المتقدمة للعلم والعلماء .

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

1. ديوان الشافعي ١٣١ ، والدوكاء ، من داك يدوك ، داك القوم وقعوا في اختلاط و خصومة ( ينظر : القاموس المحيط ٨٦٦ ( دوك)
2. غرائب القرآن ١/ ٢٢٧
3. المصدر نفسه

نتائج البحث :ـ

١ـ أن مفهوم الرصانة العلمية له جذوره القارّة في تراثنا العربي اللغوي والادبي،

 و لمختلف العلوم ، و هذا تؤكده المدونات اللغوية والأدبية بما تضمنته من شواهد .

٢ـ يؤكد البحث التلازم الوثيق بين أركان الرصانة العلمية ـ إن صح التعبير ـ كالعلم . والعالم ، والمتعلم ( الرسالة ، والمُرسِل ، والمرسَل إليه) ، والتعالق بين هذه

 المصطلحات ومفاهيمها لا يمكن الاستغناء عن كل منها عند النظر لمستوى الرصانة وتطبيقاتها.

٣ـ. تنوعت مصاديق الرصانة العلمية في مجالات العلم ، وأهميته ، ، وشروطه ، ونشره ، تحصيله ، وصونه . كالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة ، واقوال الائمة والعلماء ، فضلا عن الشعر .

مصادر البحث و مراجعه:ـ

* القرآن الكريم
* إعراب القراءات السبع و عللها/ ابن خالويه ( ت ٣٧٠ ه‍) تحقيق د عبد الرحمن العثيمين ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ط/١ ـ ١٩٩٢.
* الإمام الشافعي فقيها ومجتهدا / تأليف مجموعة من الباحثين ، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية سلسلة الدراسات الإسلامية ـ ردمك ـ ٢٠٠١
* بحار الانوار/ العلامة محمد باقر المجلسي ( ت ١١١١ ه‍) تحقيق محمد الباقر البهبودي وآخرين ، ردمك ، ط /٣ ١٩٨٣ .
* الجامع الصغير / السيوطي ( ت ٩١١ ه‍) ـ دار الفكر ، بيروت ، ط /١ ـ ١٩٨١ .
* حكمة القرآن في سورة لقمان / السيد حسن النمر الصائغ الموسوي ، دار الولاء ـ بيروت ، ط /١ ـ ٢٠١١ .
* الدلالة الصرفية في شعر لبيد بن ربيعه العامري/ د. سليمة جبار غانم الغراوي ، دار الولاء ـ بيروت ط/١ ، ٢٠٢٢
* ديوان الشافعي / جمعه وحققه وعلق عليه زهدي يكن ـ دار الثقافة ـ بيروت ، ١٩٦١ .
* ديوان صادق القاموسي / جمعه وعلق عليه محمد رضا القاموسي ، المكتبة العصرية ، شارع المتنبي ـ بغداد ـ ط/١ ـ ٢٠٠٤ .
* الصحاح / الجوهري ( ٣٩٦ ه‍) تحقيق احمد عبد الغفور عطار ، عني بنشره السيد حسن شربتلي ، مطابع دار الكتاب العربي بمصر ـ ( د. ت ) .
* العين / الخليل بن احمد الفراهيدي ( ت١٧٥ ه‍) ، تحقيق د. مهدي المخزومي ، و .د. ابراهيم السامرائي ، الجمهورية العراقية ـ منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ دائرة الشؤون الثقافية والنشر ، سلسلة المعاجم والفهارس ( ٥٠ ) ـ ١٩٨٤ .
* غرائب القرآن ورغائب الفرقان/ نظام الدين النيسابوري( ت ٧٢٨ ه‍ ) تحقيق الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ،بيروت ـط/ ١ ١٩٩٦
* غرر الحكم و درر الكلام المفهرس من كلام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب ( عليه السلام) / الشيخ عبد الواحد بن محمد التميمي الامدي ( ت٥١٠ ه‍) ، ترتيب وتدقيق عبد الحسين ذهبي ، قم ، مكتب الاعلام الاسلامي ، ٢٠١٥ .
* القاموس المحيط / الفيروز آبادي ( ت ٨١٧ ه‍) إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، ط/ ٢ ـ ٢٠٠٣
* مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة / ابن القيم ( ت٧٥١ ه‍) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ( د. ط) ، ( د. ت ) .
* مفردات الفاظ القران/ الراغب الأصفهاني ( ت٤٢٥ ه‍) تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم ـ دمشق ، الدار الشامية ـ بيروت ، ط /٤ـ ١٤٢٥
* من هدي السلف في طلب العلم/ في طلب العلم/ محمد بن مطر الزهراني ( ١٤٢٧ ه‍ ) ، دار طيبة ـ الرياض ، السعودية ، ط ٢ ، ٢٠٠١ .
* ميزان الحكمة / محمد الريشهري ،دار الحديث ـ ردمك ، ط / ١ ، ١٤١٦ .
* نهج البلاغة لأمير المؤمنين علي بن ابي طالب ( عليه السلام ) منشورات الفيحاء للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ،ط /٢ ، ٢٠٢٢ .